روح التغيير الفكري والتاريخي عند المسلمين

أ.نورة قدور
جامعة وهران 02

ملخص:

لقد كان العرب قبل الإسلام مجرد قبائل يعيشون حياة البداوة والحروب ويدينون بديانات مختلفة ، لقد كان التراث التاريخي العربي قبل الإسلام مختزلا بصورة عامة في ثلاث فروع وهي الشعر – أيام العرب –الأنساب ،هذه الفروع المعرفية كانت تمثل الذاكرة الجماعية ،أو الوعي المشترك للقبائل العربية التي لم ترتقي إلى مستوى الأمة أو الدولة ،مع مجيء الإسلام أصبح مفهوم جديد للمجتمع الإنساني يرتكز على العقيدة الروحية ، مجتمع مفتوح يقوم على الأخوة ،ويدعو جميع البشر الانتظام فيه على أساس المساواة الشاملة ،فبات التغيير بهذا المجتمع على جميع الأصعدة.

the spirit of intellectual and historical change among muslims :

In Pre-Islam period, The Arabs' lives were just nomadic tribes and war life which they were condemning different religions. At that time; The Arab's historical heritage was generally divided into three branches: poetry - the Arab days - the genealogy, these knowledge branches represented the collective memory or common consciousness of the Arab tribes which didn't reach the level of the nation or the state. with the advent of Islam, it has become a new concept of human society built on spiritual doctrine, an open society based on brotherhood, and invites all human beings to be organized on the basis of broad equality, accordingly the change in this society became at all levels.

حين ننظر إلى الواقع من حولنا نرى ضرورة التغيير ،وحين نعود لننظر في ماضي الشعوب التي سبقتنا ،نلحظ كيف أن هذه الشعوب سعت لتغيير واقعها كلما أُتيحت لها الفرصة في ذلك ،وكل هذا يحتاج لإرادة خلاقة ولحوافز تحرك هذه الإرادة ،وظروف وأسباب تدعم ضرورة هذا التغيير ،وبما أن ظهور الإسلام يعتبر أهم حدث تاريخي وديني وحضاري في شبه الجزيرة العربية ،بل ومن أهم الأحداث التي عرفها التاريخ البشري ،وليس الإسلام دينًا وحسب ،بل دينًا وحضارة ،فكل ما ظهر في العالم الإسلامي من آراء ومذاهب يحمل تغييرًا وتبدلاً فيما كان قبل ظهور الإسلام ،وبما أن للدين فضل في هذا التحول والتبدل من الأسوأ إلى الأحسن ،وكان له أثر كبير في إصلاح العرب بشبه الجزيرة العربية وضعنا عدة تساؤلات منها:

كيف كانت الأوضاع الدينية والاجتماعية للعرب قبل الإسلام وهل كان لهم وعي أنهم الأمة أو جماعة أو شعب لهم ذات تاريخية وروح إبداعية؟ كيف أحدث الإسلام التغيير في القيم لديهم ،وغرس القيم إنسانية؟ وكيف تسنى للرسول الكريم (عليه الصلاة والسلام) قلب جميع المفاهيم السائدة في جميع المجالات؟ وكيف استطاع الإسلام أن يغرس روح البحث والمعرفة والكشف بدلاً عن الجمود ،وأن يبعث فيهم روحًا تاريخية تشعرهم بأن لهم تاريخ وتشكل لديهم ووعيًا فلسفيًا بأنهم أمة تقود للازدهار وتؤمن بالتغيير؟

وبادئًا ببدء علينا أن نستقرأ مفهوم التغيير والدين نجد أنه يقصد بالتغيير عند الجرجاني: «إحداث شيء لم يكن قبله[1] »،وجاء في الموسوعة الفلسفية للالاند أنه: «فعل يحدث تشكيلاً في إحدى خواص الشيء أو كله[2]» .بمعنى يجعله غير ما كان،أو حَوله وبَدَله ،وهذا التغيير قد يحدثه الدين أحيانًا ،فيكون له دور كبير في تغيير واقع الحضارات ،وخاصة لدى الشعوب التي لا عمادَ لها ،وبما أن الدين كمفهوم يقصد به لغة العادة والشأن ربما اعتبر عادة كون الشعوب لا تعيش دون دين سواء كان سماويًا أو وضعيًا[3] أما اصطلاحًا يقصد به :وضع إلهي يدعو أصحاب العقول إلى قبول ما عند الرسول وأنه

الطاعة والانقياد والاعتقاد فيما نعتقد به من أمور الشهادة وأمور غيبية لقوله تعالى: «إن الدين عند الله الإسلام» (سورة آل عمران الآية19) ،وبعد هذا سيكون من المنطقي تقسيم العمل إلى مرحلة العقلية العربية قبل إسلام وما بعده . العرب قبل الإسلام :

يقول: «علي ابن أبي طالب رضى الله عنه»:«بعث الله محمدًا ،وليس أحد من العرب يقرأ كتابًا،ولا يدعي نبوة ولا وحيًا»وهذا القول في إيجازه يصور حال العرب من جهل ،وفلا دراية لهم بالمعارف العلمية ولا دينية ،فجميع معرفهم مستمدة من تجاربهم وعاداتهم وتقاليدهم ،وقد وصفوا أنفسهم بالجهل حين ردوا على الرسول الكريم(عليه الصلاة والسلام):«إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون » (سورة الزخرف الآية22)،وقوله«هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل في ضلال مبين » (سورة الجمعة الآية2).

كان يطلق علي هذه الفترة "بعصر الجاهليّة" ،ولا يقصد بالجاهليّة الجهل الّذي هو العلم ، ولكن من الجهل الّذي هو السّفه والغضب والأنفة[4] ،حيث يشهد«ابن خلدون» أنه لما ظهر الإسلام كان في قريش سبعة عشرة رجلاً كلهم يكتب[5]،وكان سكان شبه الجزية العربية يدينون بديانات شتى ،فالكتابات التي اكتشفت في جنوبي شبه الجزيرة يدل على عبادة الشمس والقمر ،لقد ذكر القرآن آلهتهم قبل النبوة(اللاّت والعزّى ومناة وودّ وسواع ،يغوث ويعوق ونسر..)، وقد وصل عدد الأصنام المحيطة بالكعبة نحو ثلاثمائة وستّون صنماً [6] ، وهذا دليل تعصّب كل قبيلة لآلهتها[7] وكانوا يعبدون أصنامًا يطوفون حولها ويسألونها حوائجهم .

وكان من الأديان التي لها وجود في البيئة العربية النصرانية في القرون الأولى في الحجاز واليمن ونجران حتّى أجلاهم عمر بن الخطّاب عنها ،ومن أهم مراكز اليهودية خيبر ويثرب ، وبقوا فيها حتى أجلاهم الرسول عنها ، وكان هناك دين " الصابئة " من عبدة الكواكب في شمال الجزيرة العربيّة ،وكانت بمكة سوقًا مشهورة يؤمها البدو والحضر في مواسيم معينة فيلتقي الوثني باليهودي والمسيحي ،فباتت في القرن 6م موطن التقاء الهنود والفرس وبابل والحبشة والشام [8].

لقد كان التراث التاريخي العربي قبل الإسلام مختزلا بصورة عامة في ثلاث فروع وهي الشعر – أيام العرب –الأنساب ،هذه الفروع المعرفية كانت تمثل الذاكرة الجماعية ،أو الوعي المشترك للقبائل العربية التي لم ترتقي إلى مستوى الأمة أو الدولة ،لقد كانت هذه الفروع المعرفية تمثل السلطة المعرفية التي يفكر من خلالها الإنسان العربي ،فكانت تمارس سلطتها الوجودية على تفكيره وسيرورته التاريخية(إن الشعر هو ديوان العرب) ،وهو في حد ذاته شهادة تعكس أهمية الشعر كمعلم تاريخي في حياة العربي وتاريخه ،والذي كان من خلاله يستعيد رموزه ومكانته الاجتماعية وموقعه القبلي ،وإذا كان الزمن هو حامل التاريخ وهويته إذ لا يمكن الحديث عن وعي تاريخي دون وعي بفكرة الزمن ،وثمة سؤال مشروع كيف كان الشاعر العربي يتصور الزمن ؟وبالتالي كيف ينظر الإنسان الجاهلي للزمن إذا اعتبرنا أن نظرة الشاعر هي بمنظور تجريد للروح العام للمجموعة التي ينتمي إليه؟

لم يكن الشاعر الجاهلي فيلسوفًا بمعنى الكلمة ولكنه ينظر إليه من خلال التجربة الوجودية باعتباره كائنًا موجودًا يعاني الموت على حد تعبير (هيدجر) لذلك كان تفكيره منصبًا حول فكرة النهاية من حيث أنها تمثل مشكلة وجودية وهي الموت والزمان بهذا المعنى هو رمز للفناء فبتقدمه تمضي الحياة وحياة الفرد نحو نهايتها ،ولعل كلمة الدهر كانت أكثر الكلمات تداولًا وارتباطًا بالموت ،وكانت توحي إلى معانٍ كثيرة منها النقص والشقاء والعجز عن تحقيق الآمال وفي هذا الصدد يقول الشاعر أبو داوود الإيادي :

سُلِّطَ الدهر والمَنُونُ عليهِمْ ... فَلَهُمْ في صَدَى المقابر هامُ

وَكَذاكُمْ مَصِيرُ كُلِّ أُناسٍ ... سَوْفَ حَقًّا تُبْلِيهِمُ الأَيَّامُ

فعَلَى إِثْرِهِمْ تَسَاقَطُ نفسي ... حَسَرَاتٍ وذِكْرُهُمْ لي سَقامُ

لقد كان وقوف الشاعر الجاهلي على الأطلال هو وقوف على الفناء

وهذه هي طبيعة الدهر الذي لا يحمل معه إلا النقصان والخيبة ،وعليه يمكن القول أن تصور العرب للزمن كان تصورًا سلبيًا وهذا راجع في الأساس إلى انعدام العقيدة الدينية التي توضح للعرب الحياة التي ينتقلون إليها بعد الموت .

وإذا كان العربي الجاهلي يجد في الشعر ملاذه الروحي ،فإنه يجد في الأيام كما وردت في الشعر خصوصًا موضوعًا للتفاخر بين القبائل لما لها من دلالة رمزية وأهميتها في تقييم الرأسمال الرمزي بين القبائل .

ويرى المؤرخ (حاجي خليفة) وهو أحد المؤرخين للثقافة العربية أن الأيام هي فرع من التاريخ إذ يقول :(علم أيام العرب وهو علم يبحث في الوقائع والأهوال الشديدة بين قبائل العرب) والعلم المذكور يجب أن يكون فرع من فروع التاريخ .

ولكن أيام العرب في نظرنا لم تكن تعبر عن الوحدة العضوية للتاريخ العربي ،بقدر ما عبرت عن تناقض هذا التاريخ فهو مجال للصراع بين القبائل الذي كان يفضي للدمار والفوضى ،أكثر مما كان يعمق شعور العرب بوحدة تاريخهم ونفس الحكم يمكن سحبه على علم الأنساب :إذ لم يكن يتضمن من إشارات إلى أحداثٍ تاريخيةٍ إلا في القليل النادر ،ذلك إن مثل هذه المجالات التاريخية لم تكن إلا تكن هدفًا للأنساب ،ولم تكن مما يشتغل به النسابون إلا على سبيل التفاخر مما فعله الآباء.

فالباحث في هذه البيئة يدرك أنهم كانت لهم معارف أرشدتهم إليها تجاربهم الخاصة ونوع المعيشة التي كانوا يعيشونها ،فالتفتوا إلى السماء وعرفوا شيئًا من النجوم وربطوها بكثير من ظواهر الوجود ،وإن كانوا لم يبحثوا في ذلك بحثًا منهجيًا،ولم يدونوا كما دوَنَ اليونانيون العلوم ،ولم يرتقوا ليضعوا مبادئ للسير عليها في حياتهم مثل اليونانيون.

وعلى ضوء هذا يمكن القول أن ما نقل إلينا من ثقافة العرب قبل الإسلام لا يدل على وعي واضح بفكرة التاريخ وذلك على الرغم من دلالته الهامة على ملامح المكونات الأولى للثقافة العربية قبل الإسلام،وهذا في نظرنا يعود إلى عاملين أساسيين:

- غياب فلسفة أو عقيدة تعطي للحياة مغزاها .
- غياب فلسفة سياسية ثابتة (دولة) تبرر حركتها واستمرارها ،والذي يتمثل في ضرورة وجود الإطار الفلسفي .

هذين العاملين تم على إثرهما تأسيس الحضارة العربية الإسلامية وبالتالي تأسيس وعي فكري وتاريخي جديد مع ظهور الإسلام ،ورغم تلك الظروف السابقة التي تعيشها هذه العقلية ،ولكن لا تقل عن أي عقلية أخرى من حيث الاستعداد لاستقبال الفكر .

فما هي المعاني الجديدة التي أعطاها الإسلام للتاريخ وللإنسان العربي نفسه ؟ إذا كان العرب مادة الإسلام كما قال عمر ابن الخطاب رضي الله ،فإن هذا الدين الجديد ارتبط بشخصية عظيمة ،تأملت واقعها ووجدته مضطربًا وغريبًا في طقوسه وقيمه ،وفكان عليه الصلاة والسلام لا يستريح لمعظم سلوكيات أقرانه ولا لرجال العرب وشيوخهم ،ولم يطمئن لما يعبدونه من أوثان ،فانتابه الشك والحيرة فيما يعبدون ،فاتجه بتأمله نحو النظر للكون والتدبر في نظامه رافضًا بشكل واضح عادات وتقاليد قومه ومتحملاً في ذلك كل مشقة إلى أن نزل عليه الوحي .

تقبل الرسول الكريم الوحي بعد تفكر وتدبر ،وأبلغه لأهله بحكمة وروية ،ولم يجهر بذلك مما يدل على حكمته ،وكما لن ييأس من إيذاء قومه ،بل كان يقابل السيئة بالحسنة ، مما يدل على سعة قلبه وأفقه ،واتبع في ذلك أسلوب الحكمة إلى أن آمن الكثير[9] ،كما أنجبت هذه الصحراء الجرداء عشرات الصحابة الذين سلكوا مسلك رسولهم العظيم في كل أمورهم ووقفوا لموقفه ،فلم يؤمنوا إيمان الجاهل الأعمى بل إيمان العالم المتبصر بعد معرفة حقيقة هذا الدين من الرسول الكريم.

فالناظر يدرك الموقف الفلسفي الحقيقي من الرسول ،أليس هذا ابن الصحراء القاحلة ،والمتزمتة بعقليتها الضيقة ،وأليس أصحابه من الخلفاء أبناء هذه البيئة ،وقد ساعدتهم هذه الظروف لأن ينقلبوا من حياة الجهل إلى حياة العلم فتغيروا تغييرا ليس بعده تغير. تتجلى ملامح التغيير بوضوح لنا بتحديد مسار الدعوة بالآية الأولى الّتي تحث على القراءة قوله تعالى:" إقرأ باسم ربّك الّذي خلق" (العلق1) ، وتليها بعد فترة زمنيّة أية أخرى تبدأ بالقلم وما يمكن الكتابة به وقوله:"ن والقلم وما يسطرون ما أنت بنعمة ربّك بمجنون وإن لَكَ لأجراً غير ممنون وإنّك لعلى خلق عظيم فستبصر ويبصرون "(سورة القلم الآية1إلى5)

،لقد كان الجميع يدرك أخلاق الرسول عليه السلام ، فسيأتي القرآن لاحقاً ويخاطب الرّسول بأنّه على خلق عظيم .

العرب بعد الإسلام :

لقد جاء الإسلام بمفهوم جديد للمجتمع الإنساني يرتكز على العقيدة الروحية ،فهو مجتمع مفتوح يقوم على الأخوة ،ويدعو جميع البشر الانتظام فيه على أساس المساواة الشاملة ،فهذا المجتمع الجديد الذي يقوم على الرابطة الروحية قد ساعد على نشأة فكرة التاريخ عند المسلمين وذلك أن الجانب النظري والعيني من مفهوم القرآن قد أخذ صورته ،كما قدم صورته العملية والتطبيقية بعد نشأة المجتمع الإنساني ،فامتدت الفتوح الإسلامية بعد ظهور الإسلام بإعلاء كلمة الله تحقيقًا لفكرة التاريخ التي أقرها القرآن الكريم ثم نشط التأليف في التاريخ .

لقد أدرك المؤرخون العرب أن تاريخهم منذ ولادة الرسول عليه الصلاة والسلام في مرحلة حاسمة تستحق أن تكون منطلقًا لبحوثهم ،وإن النشأة الدينية لطائفة كبيرة من المؤلفين المسلمين جعلت هؤلاء يشعرون أن اهتمامهم بتاريخ العرب قبل الإسلام هو تلبية لشعورهم الديني العميق والممتد للعلوم الدينية التي مهروا فيها مفكرو التاريخ المسلمين ظلت مرتبطة بالدين ،وبالتالي هذه الفكرة المركزية التي نجدها عند المؤرخين باعتبار أن الإسلام هو نهاية التاريخ وقمته ،لأن معه تنتهي النبوات والرسالات التي كانت في أساسها واحدة وبشر بها رسل كثيرون ،وكان النبي محمد عليه الصلاة والسلام فعلا قد أشعر العرب أنهم أهل رسالة جليلة ،وأنهم يمرون بمرحلة هامة ،كما أن الفتوحات الكبرى جعلتهم يحسون أن لهم دور في التاريخ عظيم ،وهذا ما كان له أثر كبير وقوي في الدراسات التاريخية وفي تطورهم العلمي .

وهكذا غير ظهور الإسلام كثيرًا من مفاهيم العرب التي لا تتلاءم مع طبيعة المرحلة التاريخية والإنسان الإسلامي ،ومن القلق الوجودي الذي كان سمة الشعر الجاهلي كما رأينا من قبل تحول التساؤل والشك والتشاؤم المطلق والعجز أمام قسوة الفناء إلى التفاؤل والإيمان بالخلود في حضرة هذه السرمدية المطلقة التي هي مصدر كل وجود وبهذا صار القلق من المجهول (الفناء ،شوقًا للمعلوم نعيم الأبدية ،لقد نظر الإسلام إلى التاريخ نظرة أخلاقية فقد وجه الفكر البشري لأجل التقاط الحوادث بوصفها عبرًا :لقوله :(يقلب الله الليل والنهار إن في ذلك عبرة لأولي الأبصار) إذا كانت أحداث الزمان في مفهوم الإسلام عبرًا أي مادة تفكير وتأمل فإن التفكير فيها حث على جمعها ولم إجراءها وتبويبها ووضع كل واحدٍ منها في موضعه أي تصنيفها في أخر مرحلة ،وذلك هو الأصل في تحول الأخبار أي علمٍ في دائرة المجتمع الإسلامي ،لقد ربط الإسلام بين التاريخ وموضوعه في وثبة أخلاقية لاستشراف الحقائق تحولت معها الوقائع والأحداث والأحوال

التاريخية إلى عبر في الحاضر ومواعظ للمستقبل ودونما شك في أن هذا الوعي التاريخي الجديد الذي أتى به الإسلام سيجد دلالاته الدينية ومرجعيته عند المؤرخين المسلمين الذين ما كانوا ليفصلوا بين ثقافاتهم الدينية ومنهجياتهم التاريخية فكان التاريخ جزءًا من الدين .

وهكذا تحول العرب من العصبية القبلية إلى مجتمع أخلاقي يسيره قيم ومبادئ الدين ،وفي فترة وجيزة من الوحي إلى الهجرة النبوية للمدينة المنورة حتى تشكلت نواة هذا المجتمع وباتت تتأسس الدولة والحضارة الإسلامية بوجود خير الخلق ،ولتستمر بعده مع الخلفاء الراشدين ،فاجتمعت العصبية مع الدين لتكون هذا المجتمع لقوله تعالى "لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألّفت بين قلوبهم" ، وسرّه أنّ القلوب إذا تداعت إلى أهواء الباطل والميل إلى الدّنيا حصل التنافس وفشا الخلاف ، وإذا انصرفت إلى الحق ورفضت الدنيا والباطل وأقبلت على الله اتّحدت وجهتها فذهب التنافس ، وقلّ الخلاف ، وحسن التعاون والتعاضد واتّسع نطاق الكلمة لذلك فعظمت الدولة "[10].

كانت مصادر التشريع الإسلامي الّتي فرضت نمط التغيير على العرب خاصّةً والمسلمين بصورة عامّة هي القرآن الكريم والسنّة النبويّة ، والقرآن بحدّ ذاته هو تغيير ، إذ فرض على المسلمين قواعد السلوك المتعدّدة في جميع مناحي الحياة ، وأصبح هو المرجع الأوّل للمسلمين ، فقد علّمهم أسلوب حياةٍ جديدة لم يكونوا يعرفونها قبل الإسلام.

لم تنتهي مسيرة التغيير بعد وفاة الرسول الكريم ،بل بدأت الفتوحات الإسلاميّة زمن الخليفة الأوّل أبو بكر الصّدّيق ، ومن تلاه من الخلفاء الرّاشدين وفي العصر الأموي ، وبدأت حدود الدولة الإسلاميّة تتّسع ويزيد عدد سكّانها ، فمن الجزيرة العربيّة تم ضمّ بلاد الشّام ، ثم بلاد فارس ، وبعدها مناطق شمال أفريقيا ، وأواسط آسيا ، وجنوب أوروبا في اسبانيا وفرنسا ، وكان عرب الصّحراء يحقّقون نتائج مذهلة للسرعة التي تمّت بها هذه الفتوحات ، " ولم تمض على وفاة النّبي محمّد مئة سنة حتى أصبح العرب أسياد دولة أعظم من دولة الرّومان[11].

كما لا يفوتنا أن نذكر أن التأليف التاريخي عند العرب ظهر في اتجاهين بارزين اتجاه أهل الحديث واتجاه الأيام رمز استمرار الحياة القبيلة وترسيخ دورها الريادي ،وإذا كان هذان الاتجاهان قد برزا بعد ذلك في مدرستين للتأريخ العربي إلا أن هناك جملة عوامل ساعدت على ظهور التاريخ كعلم ومن بينها وبعض النظر عن الروايات الشفوية التي حصل عليها الأعراب الذين تواجدوا في البوادي إلا أن جملة من المؤرخين يرون أن بداية التاريخ العربي يعود إلى القرن 8 ميلادي حينما توافرت العوامل التالية :

1/ أبحاث الفقهاء في اللغة العربية وما وصلوا إليه من كلمات عربية الأصل أعطاها الإسلام معاني متعددة.

2/ الفتوحات الإسلامية وما نجم عنها من احتكاك مع الحضارات الأخرى مع العلم أن المسلمين وتفاديًا لأي خطأ قد يقع ،لم ينقلوا من هؤلاء الأمم صيغ التأريخ بل ضمنوا تأريخهم سير هذه الأمم كسيرة الفرس أو اليونان ،يأتي هذا مع تكامل أطر الدولة الإسلامية مما أدى إلى استقرار سياسي داخل الدولة الذي وفر بدوره وقتًا واسعًا لتدوين تاريخ الملوك وتاريخ المعارك وبالتالي دفع هذا إلى ظهور علم التاريخ.

3/ تشجيع الخلفاء والأمراء للمؤرخين خاصة بعد ظهور الحركة الشعوبية التي تشككت في النسب العربي ،وإن كانت للشعوبية جذور في العصر الأموي إلا أنها كشفت عن وجهها في العصر العباسي ووجهت إلى ماضي العرب شكوكًا وحطت من الأخلاق والسجايا العربية .

4/ ارتباط ظهور التاريخ بايدولوجيا الوحدة العقائدية في الإسلام (فمن المعلوم أن الدولة الأموية مزقتها حروب الأموية مزقتها حروب نتجت عن صراع ومنافسة وأن الدولة العباسية عرفت نزاعات اعتبرها البعض ذات صبغة قومية واهتدت

الخلافة بعد تجارب خاصة أيام المتوكل إلى سن سياسة التعايش بين الجماعات المتصارعة ،وذلك بإدماجها في حضيرة الدولة)[12]

5/ ظهور ما يسمى بعلم الحديث في إطار تدوين السنة النبوية واعتماد الفقهاء قواعد الإسناد والتجريح .

إن هذه العوامل مجتمعة إضافة إلى القرآن الكريم وما يحمله من صور العبرة وفهم للزمن والإنسان دفعت الشعوب العربية والإسلامية إلى إغناء حقل المعرفة التاريخية ،والاهتمام به وهكذا أصبح التاريخ عند العرب يبحث فيه عن وقائع الزمان من حيثية التعيين والتوقيت بل عما كان في العالم ،وموضوعه يقوم على الإنسان والزمان[13].

ولذا بادر المؤرخون ضمن حقل الاسطوغرافيا العربية الإسلامية إلى التأليف التاريخي إلى أن بلغ حدًا مع المؤرخ عبد الرحمان ابن خلدون ويمكن أن ترتقي لفلسفة تاريخ، إن هذا التنوع في الإسطوغرافيا العربية يبدو ولأول وهلة أنه شامل لكل ما يمكن أن يدخل تحت ضوء التأريخ ، ولكن بالموازاة مع هذه الحركة كانت الفلسفة تستقطب اهتمام المفكرين خاصة بعد حركة الترجمة للفكر اليوناني.

إذ لا يسع الباحث في تاريخ الفلسفة العربية إلا أن يتنبه إلى ظاهرة هامة من ظواهر الاتصال الثقافي والتي يتجلى فيها الدور الأعظم في التغيير من خلال الجهد المبذول من طرف العرب ،وهي ترجمة الفكر العالمي من الماضي من اليونانية إلى السريانية ومن السريانية إلى العربية ،ومن العربية إلى اللاتينية[14] ،حيث أن موضوع الكلام هنا عبارة عن ظاهرة ثقافية ذات أهمية رئيسية ،نستطيع تعريفه بأنه إدماج الإسلام ،مأوى الإنسانية الروحية الحياتي الجديد ،لكل ما وصلت إليه الثقافات في الشرق والغرب[15].

فلما فتح العرب بلاد الفرس والروم أخذوا من الحضارة بحظ وافر ،وتشوقوا لمعرفة العلوم الحكيمة ،بما سمعوه عن القساوسة والأساقفة المعاهدين لهم ،وبما سمت إله عقولهم من طلب العلوم والصنائع والتفنن فيها [16] ،كما أن هذه الفلسفة لم تنشا من مجرد الكشف عن الكتب الفلسفية القديمة ،ولا عن مجرد الاتصال المباشر بين العرب واليونان ،بل نشأت عدة مصادر ،فتمازجت وتكاملت بالتدرج مع استقرار الدولة العربية واستحكام أسباب الحضارة فيها ،بدليل أن الترجمة لم تكن مقصورة على النقل من اليونانية وحدها بل اشتملت على التراث الثقافي الضخم الذي تلقاه العرب من عدة لغات سواءً الفارسية أو العبرانية ، الهندية والقبطية واللاتينية .

كما أن هذا الاتصال (الشرق والغرب) لم يتم دفعة واحدة ،بل بمراحل متعاقبة ،فبدأ السريان بنقل الآثار اليونانية إلى اللغة السريانية قبل نقلها للعربية [17]،ولقد دام هذا النقل زهاء ثلاثة قرون (أوائل القرن 2 /أواخر 4 هـ) مما يدل أنها حركة واسعة وجند لها أعدادًا كبيرة من علماء المسلمين وغير المسلمين المنتسبين إلى أجناس بشرية مختلفة ،وكانت بداية حركة الترجمة في أوائل القرن 7م و لم تنشط إلا في أواخر 8م ،و لم يبلغ ذروته إلا في القرن 9م ،وأول عملية نقل ذكر (ابن نديم) في الفهرست أنها تمت بفضل خالد بن يزيد بن معاوية الملقب بحكيم بني مروان لوُلوعه بالعلوم ،إذ أمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونان المتفصحين بالعربية ،وطلب منهم بنقل بعض كتب الكيمياء وغيرها من اللسان اليوناني والقبطي إلى العربي [18] ،كما أجاز عمر بن عبد العزيز بنقل بعض كتب الطب،ولكن هذه الترجمات في عهد بني أمية تعتبر مجرد تمهيدات لحركة الترجمة الواسعة ،والتي عرفت أوجها مع الدولة العباسية ، وفي ظل هذا يمكن التساؤل عن البواعث التي دفعتهم للترجمة ؟

إن المتصفح لهذه الحركة يتأكد أنها ابتدأت في زمن بني أمية وبلغت ذروتها في زمن العباسين ،إذ يتجلى الباعث الأول في باعث عملي من حاجة العرب إلى هذه العلوم في تنظيم شؤون حياتهم ، وأكد بعض المؤرخين أن (أبا جعفر المنصور)

طلب إلى ملك الروم أن يرسل إليه بكتب التعاليم المترجمة ،فبعث له كتاب (إقليدس) وكتب في الطبيعيات ،فاطلع عليها المسلمين ،كما يؤكد المؤرخون أن العرب في هذا العهد تعرفوا على بعض كتب من اللغة الفارسية (كليلة ودمنة)،وكذا كتب الفلك لمعرفة حركة الكواكب والرياضيات وكانت حاجتهم علم الحساب لضبط بيت المال وجباية الضرائب وحساب الفرائض ،الطب لصحة الأبدان.... [19].

كما كان هناك باعث ثقافي ،ويتجلى في احتياج العرب لمعرفة ثقافة الشعوب (الفرس واليونان وروم) لتوطيد حكمهم والدفاع عن عقيدتهم باحتكاكهم بالشعوب الأخرى (عصر العباسي الأول)،و لم يمنع ذلك من تعد الثقافات ودخول أفكار تتعارض مع العقيدة ،فما كان من الخلفاء إلا تجنيد علماء للرد على الدهرين والمجوسيين ،كالمعتزلة الذين دافعوا عن الدين بالعقل واستعانوا بالمنطق الأرسطي .

كما كان للحظة الحُلمية للخليفة المأمون دور كبير في نقل كتب اليونان للعربية ،إذ أن (ابن نديم) ذكر في الفهرست ص 339 : « أن المأمون رأى في منامه كأن رجل أبيض اللون مشربا حمرة ،واسع الجبهة ،مقرون الحاجب ،أحلج الرأس ،أشهل العينين ،حسن الشمائل ،جالس على سريره،وقال المأمون كأني بين يديه ،قد ملئت هيبة ،فقلت من أنت قال (أرسطو طاليس)،فسررت به وقلت أيها الحكيم أسألك قال :سل قلت : ما الحسن؟ قال: ما حسن بالعقل،وقلت أيها الحكيم أسالك ؟ ثم قلت : ثم ماذا ،قال :ما حسن بالشرع ،قلت ثم ماذا؟قال :ما حسن عند الجمهور قلت : ثم ماذا ؟ قال :ثم لا ثم [20]».

وهكذا يعتبر هذا الحلم من الأسباب التي بعثت على الترجمة ،إذ كان بين المأمون وملك الروم مراسلات ،وطلب إليه باستخراج العلوم القديمة المخزونة في بلاد الروم ،فأجاب بعد امتناع ،فأوفد المأمون جماعة علمية (الحجاج ابن مطر ،وابن بطريق وسلما صاحب بيت الحكمة ...فتم النقل لكل ما أُحضر ،وكان لهذه اللحظة الحُلمية أثرها بتأسيس بيت الحكمة الذي يتوفر على ترجمة على علوم الأوائل من اليونانية إلى السريانية ثم العربية ،وكان حنين ابن إسحاق من أول وأنشط المترجمين (يختار أفضل نصٍ من بين العديد من النصوص اليونانية قبل الترجمة) ،وكان معظم الترجمات السريانية تمت في القرن (2 / 3 هــ)في دار الإسلام ،بفضل من يعرف اللغتين السريانية والعربية ولكنهم كانوا يستسهلون الترجمة السريانية لتمكنهم منها[21].

ولا نكاد نرى لهذه الترجمة العربية لها مثيل في أي حضارة أخرى ، ونكاد نرى نفوذ علوم اليونان في العالم العربي بأوسع نطاق بفضل علماء إنسانيات فلا نجد مثلهم إلا في القرن 19 م في أوربا،وكثير من الكتب اليونان لم تبقى منها إلا ترجمات العرب ،ومن هنا يمكن القول : كان للعرب فضل عظيم جدًا في تكوين التراث اليوناني :الصحيح منه والمنحول ،ومن تحقيق النصوص الصحيحة الباقية لنا من هذا التراث باللغة اليونانية ...فلهم أكبر فضلٍ من أية أمةٍ ...لقد كان العقل العربي منفتحًا لكل ألوان الثقافات العالمية ،فعني بالتراث الإيراني والهندي وتراث حضاراتٍ قديمة كبيرة ،إلى جانب دوره العظيم هذا في تكوين الفكر اليوناني ،وكان هذا التفتح لا يحده شيء ،ولا يقف في سبيله أي تزمتٍ ولا تعصب ،وهو العامل الأكبر في ازدهار الحضارة العربية الإسلامية،هذا الازدهار الشامل الرائع الذي أضاء العالم في العصر الوسيط[22].

ولكن هذا لا يمنعنا من أن ما أنجزه أسلافنا لم يكن لغيرنا فيه دور ،فكانت حضارات وتجارب أخرى قد تلاقحت مع عقلية عربية ،ويعترف العديد من المفكرين بدور العرب وأن كان البعض يجحد فضل المسلمين في ذلك،فالكتب العربية والغربية تعترف بذلك الفضل للعرب على الحضارة الإنسانية ، من الكتب الغربيّة الّتي تحدّثت عن دور العرب في بناء الحضارة الغربيّة المستشرقة الألمانيّة زيجريد هونكه في كتابها " شمس العرب تسطع على الغرب " والّذي كانت تهدف فيه

إعادة الاعتبار للعرب وللحضارة العربية ، وفيه رسالة لمن أنكر وينكر دور العرب في الحضارة الغربيّة وذلك بقولها " إن أوروبا تدين للعرب وللحضارة العربيّة ، وإنّ الدّين الّذي في عمق أوروبا وسائر القارات الأخرى للعرب فضل كبير جدّاً[23] .

وإن ما فتحه المسلمون من بلاد كان أهلها غير العرب،ولكن اسلموا ، لم يمنعهم من البحث عن ثقافتهم وهويتهم القديمة التي طمستها اللغة العربية ،ولكن أثر التغيير كان كبيرًا جدًا ،ومن الصعب تجاوزه وتجاوز قيمه الإنسانية فقد "أراد القوميّون الأتراك والإيرانيّون مرّة تنقية لغتهم من الجذور العربية المدمجة ، ولا يبدوا أن مشروعهم قد أدرك نجاحاً على الأقلّ بالنسبة للمفردات الفلسفيّة والفقهيّة والشرعيّة[24] " ،حيث اختلطت الأعراق والأجناس والنظم الاجتماعية والثقافية والعقلية والعقائد الدينية .

فحين نعود إلى واقعنا بعد هذه الجولة في الماضي نتساءل هل فقد ديننا بريقه مع انهيار حضارتنا وتخلفنا عن الركب؟حتما لا ولا لم يفقد ديننا قيمه ولا مبادئه مازال ينتشر يومًا بعد يوم في بقاع العالم ،بل نحن الذين تخلفنا عن الركب ،وتراجع دور مجتمعنا سياسيًا وعلميًا ،ومرد ذلك ابتعاد مسلمينا عن دينهم ،والهيار الحافز لدينا في خلق إرادة الانتصار ،والعودة من جديد ،بوعي فكري وديني وسياسي يرجعنا إلى عجلة الحضارة ،فإن الله لا يغير في قوم حتى يغيروا ما في أنفسهم ،التغير أن المحافظة على هذه القوّة حسب ابن خلدون تتم لهذه الأمّة " إذا انصرفت إلى الحق ورفضت الدنيا وأقبلت على اللّه اتّحدت وجهتها فذهب التنافس وقلّ الخلاف وحسن التعاون والتعاضد واتّسع نطاق الكلمة لذلك ، فعظمت الدولة "[25] ويمكننا أن نختم بأن البعض يرى التغيير بات مستحيلا مع الثورة التكنولوجية وأن تغيير قيم الماضي كانت لجيل غير جيلنا وزمان غير زماننا ،يمكننا أن نقول إن الوعي والفكر يظل منفتحًا على التغيير لنستمر ونبحث في ذواتنا عن وعي يتلاءم مع هذا التطور الهائل ومع هذا الزمان الذي نعيش فيه ،ولن يكون إلا في الإسلام الذي يعترف به غيرنا من مَن درسوا تاريخنا.

ومن خلال المسترق الفرنسي "روجيه غارودي"ورأيه في مستقبل الإسلام في أن الحلّ الممكن بعد إفلاس الحضارة الغربيّة يمكن للإسلام أن يكون هو الحل " فالإسلام يمتلك اليوم قدرات وإمكانات للتوسّع تفوق ما امتلكه في عصره الذّهبي "[26] ، وإذا ما حصل ذلك يكمل جارودي " عندها ستسود العالم شريعة حقيقيّة ، قانون إسلامي لا يقوم على كبت النّاس ،بل على العكس ، وقبل كل شيء ،على تحقيق العدالة الاجتماعية التي تضع بتصرّف كل إنسان جميع الوسائل التقنيّة والسياسيّة ،والرّوحيّة التي تسمح له بتنمية كل ما أعطاه اللّه من قدرات ليمارسها في الطّريق المستقيم التي حدّدها له اللّه ليحقّق مملكته على الأرض "[27] .

الهوامش

[1] -مراد وهبة ،المعجم الفلسفي،ص202 .
[2] -مراد وهبة ،المعجم نفسه ،ص203 .
[3] - محمد عثمان الخشت ،مدخل إلى فلسفة الدين ،دار قباء ،القاهرة ،د.ط ،2001 ،ص11 ،14 .
[4] -احمد أمين ، فجر الإسلام ، مكتبة النهضة المصريّة ، الطبعة الحادية عشرة ، القاهرة ، 1975 ، ص69.
[5] -حنا الفاخوري ،تاريخ الفلسفة العربية ،دار الجيل بيروت ،ط3 ،1993،ص128
[6] - محمود عرفة ، العرب قبل الإسلام ، عين للدراسات والبحوث الإنسانيّة والاجتماعية ،الطبعة الأولى ، القاهرة ، 1995 ، ص8.
[7] -فيليب حتّي ، العرب تاريخ موجز، دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة السادسة ، 1991 ، ص 41.
[8] -محمد عثمان الخشت ،المرجع نفسه ،ص130.
[9] -أحمد الصاوي الصاوي ،الفلسفة الإسلامية مفهومها وأهميتها ونشأتها وأهم قضاياها ،دار المتحدة للطباعة ،مصر،د.ط ،1998 ،ص41.
[10] - مقدّمة ابن خلدون ، مرجع سابق ، ص 166.
[11] - فيليب حتي ، مرجع سابق ، ص 9.
[12] -عبد الله العروي،العرب والفكر التاريخي،المركز الثقافي العربي، 1983 ،ص77.
[13] - السيد عبد العزيز سالم ،التاريخ والمؤرخون العرب،دار النهضة العربية،ص46.
[14] -جميل صليبا ،مرجع سبق ذكره ،ص95 .
[15] -نصير مروة ،حسن قبيسي ،تاريخ الفلسفة الإسلامية ،ص55.
[16] - جميل صليبا ،مرجع سبق ذكره ،ص96.
[17] - المرجع نفسه ،ص95.
[18] - ت-ج – دي بور ،تاريخ الفلسفة في الإسلام ،محمد عبد الهادي أبوريدة ،ص35.
[19] - جميل صليبا ،المرجع نفسه،ص96 .
[20] - جميل صليبا ،ص 107.
[21] - عبد الرحمان بدوي ،موسوعة الحضارة (الفلسفة والفلاسفة عند العرب)،ص 10.
[22] -عبد الرحمان بدوري ،دور العرب في تكوين الفكر الأوربي ،القاهرة ،ط2 ،1967 ،ص 160،161.
[23] - زيغريد هونكه ، شمس اللّه على الغرب ، ترجمة فؤاد حسنين علي ، دار المعارف ، مصر ، 1969 ص 5.
[24] - لويس غارديبه ، أهل الإسلام ، ترجمة صلاح الدين برمدا ، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، دمشق ، 1981 ، ص64 .
[25] -ابن خلدون ،مرجع سبق ذكره ،ص174 .
[26] - روجيه جارودي ،الإسلام الحي ، ترجمة دلال بواب ضاهر ومحمد كامل ضاهر ، دار البيروني للطباعة والنشر ، لبنان ، 1995 ص148.
[27] -روجيه غارودي ،المرجع نفسه ،142 .